سعادة
د. شارل سان برو

المدير العام للمعهد الفرنسي للدراسات الجيوسياسية، دكتور في العلوم السياسية ومؤهل في إدارة الأبحاث القانونية الجامعية. أستاذ متخصص في العلوم السياسية خاصة العلاقات الأوروبية-المتوسطية والأوروبيــة العــربية، لـدى البروفيســور شارل سان برو العديد من المؤلفات (40 كتاب) ترجم بعضها إلى: الإنجليزية والعربية والإسبانية والصينية.

سعادة د. شارل سان برو

منذ انهيار الكتلة الشيوعية، بداية التسعينات، استطاعت الإيديولوجيا الليبرالية الغربية، التي واكبها النجاح مع العولمة، أن تفرض نفسها على العالم بأسره وكأنها النظام المرجعي الأوحد. وبالتالي، يحدونا التساؤل حول أهمية هذا النموذج.

ويبدو أن عالم ما بعد الحرب الباردة لم يطرح أي هدف يحقق آمال الإنسانية جمعاء. وبالتالي، غابت المعايير الأخلاقية بصورة دراماتيكية. بهذا الصدد، كتب ألبير كامو أن الشبح الذي يجتاح القرن العشرين هو العدمية.

والواقع أن العدمية تتمثل بادىء ذي بدء في تحلل القيم الأخلاقية والدينية. فعالم القرن الواحد والعشرين يغامر بتوقع انتصار المادية. ذلك أن هذا العالم لا يطرح أي هدف يحقق آمال الإنسانية جمعاء. ولا شك بأن ذلك يقوّي أسس التضامن الإنساني.

وتكمن الخطورة في الفردانية والانطواء على الذات والمفاهيم الضيقة التي تجعل كل شيء رهن المصالح الخاصة مع ازدراء الخير العام أو المصلحة العامة التي تعدّ المعيار الأرقى لحضاراتنا وأنظمتنا السياسية- القانونية.

لطالما يُثار الحديث عن أزمات مالية واقتصادية تشكل تهديداً للاستقرار العالمي. بيد أن ثمة أزمة أخرى تهدد العالم الحديث بالرغم من أنها أقل وضوحاً ألا وهي الأزمة الفكرية

والأخلاقية. وبالتالي فإن الأزمة الحقيقية- الأكثر إثارة للقلق من انهيار البورصة والاقتصاد الافتراضي والمنافذ المالية- هي هيمنة النزعة المادية.

هذه المادية المستأصلة للروحانيات هي المعمول بها اليوم في البلدان الغربية؛ أو ما يُطلق عليه تسمية الغرب. هذه الأزمة الروحية تشكل تهديداً حقيقياً للحضارات؛ لذلك فإن الكفاح الرئيس هو كفاح القيم الروحية.

فالقيم الدينية المشتركة تلتقي حول إيماننا المشترك بالله، خالق الإنسان والكون. هو الله الذي لا يبتغي خفض قيمة الإنسان بل إعلاء شأنه وكرامته. وهو الله الواحد الأحد الذي يدعو الشعوب لتتعارف ﴿وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا﴾ [الحجرات، الآية 13]. فالحضارات ليست مدعوة للمواجهة فقط، بل يتوجب عليها أيضاً أن تتعاون وتتضافر للارتقاء بالقيم الإنسانية في مواجهة العولمة الشاملة والهدّامة.

في ظل هذه الظروف، لا بد من تصور قيام تحالف بين الحضارات. والمقصود بذلك تحديداً هو إرساء تحالف بغية بناء حوار موضوعي لصالح التعاون بين الحضارات والخوض معاً في معركة إنقاذ تنوع الأمم والثقافات.

قصارى القول، من المفترض العمل على مكاملة الأخلاق المثالية مع القيم الروحية في عالم حديث مهدد بالعدمية المادية، حيث نشهد، في آن معاً، وتحت ستار إيديولوجيا الليبرالية الجديدة، تفوق إنتاج الثروات الذي طالما شجبته حضاراتنا الكاثوليكية (أرسطو وتوما الإكويني) والإسلامية لقد كان الباباوات (حنا بولس الثاني، بنديكتوس السادس عشر، فرنسيس) محقين حين حذروا من مغبات الحداثوية المادية المتطرفة.

كما أذكر أيضاً الإمام أ.د. أحمد الطيب شيخ الأزهر، وصديقنا الدكتور التويجري، مدير عام منظمة إيسيسكو (المظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة) الذي يعد من أشد المتحمسين لتضامن الحضارات. وأذكر أيضاً ملك المغرب محمد السادس الذي يشكل، بصفته "أمير

المؤمنين"، مثالاً يحتذى في الحوار والتسامح حيال المتطرفين. هؤلاء الرجال المثاليون مقتنعون تماماً بأن الإسلام يحتفظ بـ" قدرة ثابتة على التطور والتحديث والتجديد"، وذلك من خلال تطبيق فريضة الاجتهاد التي تتيح التوفيق بين مراعاة التقاليد والأخذ بالاعتبار التطورات في مجال المعاملات.

والحقيقة أن البشرية تجازف اليوم في حرمان نفسها من العامل الأخلاقي في الحياة، حيث يتميز عالم العولمة الليبرالية الجديدة بالشعور بفقدان الحس أو غيابه. وبالتالي، فإن اللامبالاة هي الانزلاق الجامح نحو مجتمع معولم، أحادي الشكل ونفعي، يجمع بين توحيد الثقافات وتعظيم الفردية دون قواعد دينية أو أخلاقية؛ فالخطورة تكمن في اختفاء الحضارات.

لنكن أكثر وضوحاً؛ إن الخطر الذي يتربص بنا ليس "صدام الحضارات" الذي لا نتوقعه، أي الإيديولوجيا التي تروّجها بعض الدوائر الساعية إلى الهيمنة في الولايات المتحدة، بل إنه خطر غياب الحضارات بالذات. تبعاً لذلك، لا تقوم المواجهة بين الإسلام والغرب كما يدّعي المروّجون لصدام الحضارات.

بل تقوم المواجهة الحقيقية التي تكمن فيها مصلحة البشرية في مقلب آخر. إنها مواجهة بين الحضارات، من جهة، وترسيخ بربرية جديدة في عالم خال من الروحانيات، من جهة أخرى. في ظل هذه الظروف، يتوجب على الديانتين التوحيديتين الشاملتين- وهما ركيزتان أساسيتان في حضارتنا الغربية والإسلامية- أن تضعا نصب عيونهما هدفاً واضحاً يتمثل في النضال من أجل القيم الروحية.

وتحقيقاً لذلك، ينبغي إرساء أسس عمل مشترك يهدف إلى بناء عالم يستعيد دلالته الروحية؛ إن المطلوب في المقام الأول هو معرفة التباينات، واستخلاص القيم المتبادلة والمثل الأساسية والأخلاقيات المشتركة.

وإثر استخلاص الأخلاقيات المشتركة، ينبغي تالياً إقامة تحالف بين الحضارات بغية العمل

معاً وتحقيق إدراج المثل العليا والقيم الروحية في نسيج الوقائع الملموسة. أي، بعبارة أخرى، التوفيق بين الروحي والزمني. ليس الوقت مواتياً لصراع الأديان فيما بينها، بل يتوجب عليها النضال معاً ضد تراجع القيم الأخلاقية والروحية، ضد المادية وضد الفردانية المتطرفة.

أما السؤال الذي يجب أن نطرحه على أنفسنا فهو التالي: ماذا يبقى من الإنسان عندما يفقد الإنسانية والمبادىء الأخلاقية الثابتة، وعن أي مشروع حضاري نتحدث؟

بهذا الصدد، يقول أمير الشعراء أحمد شوقي:

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

صلاح أمرك للأخلاق مرجعه فقوّم النفس بالأخلاق تستقم

إذا أصيب القوم في أخلاقهم فأقم عليهم مأتماً وعويلا

لقد آن أوان التضافر بين الديانات التوحيدية الكبرى- بين الكنيسة الكاثوليكية والإسلام- بهدف ترسيخ حوار الحضارات. ولا ينبغي أن يكون هذا الحوار مجرد شعار فارغ، بل لا بد من تطبيقه على أرض الواقع، من خلال العمل المشترك لبناء عالم يحمل معنى روحياً كي لا يصبح وكراً أحادي الشكل.

إن العالم بحاجة إلى حضارات قوية وصلبة؛ فالحضارات التي تحمل رسالة التوحيد، وبعيداً عن كونها محكومة بالصراع، يتوجب عليها، وبصورة ملحة، أن تتعاون من أجل الارتقاء بالإنسانية في مواجهة العولمة الشاملة.

إن السلام لا يعني فقط غياب الحرب، بل إن السلام الحقيقي يستلزم نضالاً مستمراً ضد الفوضى الاقتصادية والسياسية التي تشكل مصدر التوترات الداخلية والخارجية، والتي تهدد استقرار البلدان والأقاليم. كما يتمثل السلام في التغلب على الصراعات والمظالم الجائرة. وهذا ما يذكرني بمأساة فلسطين المحتلة.

إن الإسراع في بناء السلام، كما يقول الأب هنري دو لاهوغ*، يستلزم من المسؤولين السياسيين والدينيين أن يتعاونوا ويتكاتفوا. " للمرة الأولى، استطاعت ديانات العالم أن تثبت مسؤوليتها المشتركة، ليس فقط حيال المصير الأبدي للإنسان، بل أيضاً حيال الحياة التاريخية والملموسة للإنسانية".

خلاصة القول، أؤكد أنه إذا توجب على الغرب والإسلام أن يفهما بعضهما بشكل أفضل، فليس ذلك لأن كلاًّ منهما يشكل تهديداً للآخر، كما يدعي المحافظون الجدد في الولايات المتحدة، بل لأن كليهما يحملان معاً الكثير من القيم الأخلاقية التي يحتاج إليها عالمنا. لذلك، ينبغي أن يتعاونا للدفاع عن المبادئ الأساسية للأخوّة .